

81- المخ البشرى بين التفكيك، والغسل، وإعادة التشكيل

المخ البشرى بين التفكيك، والغسل، وإعادة التشكيل (الإبداع)
 وجدت هذا الموضوع في حاسوبي مسبق بوقت ومكان كتابته
 هكذا: **العلمين (يعنى مارينا ولا مؤاخذة) في 18 أغسطس 2007**، مقال مطلوب لصحيفة الحياة اللندنية، ولم أعلم حتى الآن إن كان قد نشر أم لا ، حيث أنى لست من قراء الحياة اللندنية، غالباً مثللى مثل أغلب زوار هذا الموقع، فوجدت أنى - القراء وشخصى- أولى به، فأنزله في يومية اليوم ليكون في متناول زائر الموقع هكذا دون تعديل جوهرى، مع إضافة ما بين قوسين بالبنت الأسود أعلاه (يبدو أنى كنت أخجل أنى كتبته هناك، لماذا؟).

هل تسمحون بتكرار مثل ذلك؟

المقال:

الحديث عما يسمى (أو كان يسمى) "غسيل المخ" أصبح فى حاجة إلى تحديث جذرى، فالمخ ليس وعاءاً يمكن أن يتسخ فيغسل مما فيه، ولا هو مخزن للذكريات والمعلومات والمعارف، يحتاج إلى أمين مخزن يحافظ على ما به من السرقة أو التلف أو الاستبدال بدائل مزيفة، المخ البشرى - جنباً إلى جنب مع الجسد والخس وما بعدهما - هو كيان حيوى نابض دائم التفكك والتشكل بشكل منتظم، المفروض أنه هادف وإيجابى.

من جانب آخر لا يحفى على أحد كيف قفزت تكنولوجيا الأدوات والمعلومات والتعلم والتعليم والإعلام مؤخراً قفزات عملاقة واعدة وخطرة فى آن، بما ينبه إلى خطورة تأثيرها بطريق مباشر أو غير مباشر، فى كل من تركيب ومحتوى المخ البشرى (والكيان البشرى)، فإذا أضفنا إلى هذا أن إدارة أدوات هذه القفزة العملاقة المتعددة التجليات، تتحكم فيها قوى ليست فوق مستوى الشبهات، وأيضاً إذا أضفنا أن الذى يتحكم فى هذه الأدوات هى سلطات مشبوهة، غير ظاهرة للعيان غالباً، لأدركننا مدى أهمية فهم ما يجرى ومحاولة الخيلولة دون خطره.

عمى حكام العالم (الحقيقيين)

إن الذى يحكم - ويتحكم - فى الناس، كل الناس!!، فى عصرنا هذا ، فى وقتنا هذا، ليست هى الحكومات الرسمية المعلنة، وبالتالى فهى ليست الشعوب حتى لو أوهوها أنها انتخبت حكوماتها، لم يعد **غسيل المخ** قاصراً على تغيير معتقد فرد متهم أو جماعة متحمسة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس، بل أصبح لعبة **الحكام الحقيقيين للعالم**، وسبيلهم **الأضمن للتأثير على توجهات وأيديولوجيا بل وعواطف، وربما أديان مليارات البشر** لصالح أغراضهم المعلنة والخفية (الاستهلاك - الثروة - السلطة، وبالعكس)، كل ذلك يجرى ويتزايد بسرعة فائقة مع أن قوانين التطور تذرهم قبل غيرهم بخطورة هذا التدخل فى تشويه الكائن البشرى، مما يعرض النوع البشرى للانقراض، علماً بأنهم سوف يكونون أول أجيال المنقرضين.

طبيعة المخ البشرى بين التشكيل والإبداع

المخ البشرى كيان حيوى مرن، فى حالة نبض مستمر بحسب دورية الإيقاع الحيوى بين النوم والحلم واليقظة. لعل أهم طور من أطوار هذا الإيقاع الحيوى هو طور الحلم (بغض النظر عما إذا حكى الحلم أم لا) وهو دور "التفكيك" (وهو اللفظ الذى يستعمل حديثاً لتسمية غسيل المخ) ، ومن ثم إعادة التنظيم بشكل تلقائى، مما يبين كيف أن **الحلم هو التفكيك الطبيعى، وإعادة التشكيل هو الضمان الطبيعى لاستمرار النبض الدماغى فى اتجاهه الصحيح..**

غسيل المخ يستغل هذه القابلية للمخ - أى الحاجة الختمية إلى التفكيك - ثم ينحرف بها قصداً إلى أغراضه، بل إنه يلجأ إلى إحداث مصطنع مقصود لتفكيك متمادٍ محسوب، بشكل مرتب مبرمج ، وبدلاً من أن يساعد التفكيك على إعادة التشكيل أو يمهّد له - كما يحدث فى الحلم والإبداع - فإن التفكيك المُقَحَّم يُسَخِّرُ خدمة أغراضه الخبيثة عادة .

الإبداع - وهو طبيعة حيوية بشرية أيضاً - هو مثل الحلم: **عملية تفكيك فإعادة تشكيل**، ولكن فى وعى فائق مشتمل (مقابل وعى الحلم أثناء النوم)، ونتيجته - ليكون إبداعاً - هو إنجاز تشكيلات أشمل وأرقى، سواء كان ذلك فى شكل ناتج إبداعى أم اضطراد نحو الفرد .

غسيل المخ هو نوع من سوء استعمال خطوات الإبداع الأولى لتجهض إيجابياتها ويتم تحويلها سلباً إلى ما هو خطير وبشع .

غسيل المخ يفتعل التفكيك، ثم يتقدم إلى إعادة التشكيل - اقتحاماً من الفاعل وليس إبداعاً من المفعول به- لصالح أغراض الفاعل المغرض تماماً .

المصيبة المعاصرة هى أن دس السم فى الدسم أصبح مهمة الحكام الحقيقيين فى العالم (أغلبهم تحت الأرض: المافيا والشركات العابرة لكل شئ)،

مثلاً: كثير مما يجرى تحت اسم حقوق الإنسان، والعولة،

جزء من مسلسل آخر هو أقرب إلى القاعدة، وقس على ذلك الأغاني بل والأخبار والبرامج الحوارية.. بل قس على ذلك زخم البيانات والشعارات والإجراءات والأرقام والمؤتمرات، التي تصل إلى ملايين تتبعه أصلاً، ناهيك عن تصديقه.

ثالثاً: الإلهاء

في الإلهاء تقوم عمليات غسيل المخ بإزاحة ما لا تريده بشد الانتباه إلى غيره، ليس بالضرورة إلى عكسه مما تريده هي، بل إن مجرد الإلهاء بعيداً عن المواضيع الأولى بالاهتمام، هو خطوة تمهيدية نحو التفكيك فالحشو الأخبث، وتستعمل في الإلهاء كل الأساليب المباشرة وغير المباشرة: الإعلامية والتعليمية والتثقيفية وحتى الإبداعية.

رابعاً: التهميش

يتم التهميش، بعد التفكيك والإشلال عادة، بإزاحة تدريجية للأهم، والأولى بالنظر إلى الهامش أو الظل.

خامساً: الإحلال

بعد التهميش والإزاحة يحتاج الأمر إلى ملء الفراغ بما يحل محل الأهم والأخطر يتصاعد يسمح لنا أن نخصص لها الحديث عن ماهو "إحلال" ومن ذلك:

* إحلال الجزء محل الكل مثل التركيز على قضية أشرف فرد محل احتلال بلد، أو إحلال الاهتمام بمقتل طفل والإشفاق عليه محل مقتل المئات والألوف في منازلهم، ومنه أيضاً :

* الإغلاء من شأن الوثائق المكتوبة (عن حقوق الإنسان مثلاً) بالتقنين العقابي ثم التقديس الإعلامي، (لتحل محل) الواقع الحقيقي الذي مهمته الأساسية تنمية القوانين الطبيعية لاستمرار مسيرة الإنسان الإبداعية القادرة على المحافظة على نوعه.

* إحلال الكلمات محل الممارسة الفعلية، حتى يُكتفى بالنقاش حول ألفاظ خاوية أو خادعة، عن تنمية ممارسات أصيلة تحافظ على تكامل أفراد النوع معا ويسمى ذلك حواراً في أغلب الأحيان، أي والله!! إلخ،

* إحلال اتهام شائع مععلن محل البحث الجاد عن فاعل أصلي حقيقي،

* المبالغة في التركيز على متهم ثانوي لتعتيم البحث عن الحقيقة الهادية للمسئول الفعلي عن الجريمة أو الحرب، يعني: إحلال الأضعف حتى لو كان مسئولاً جزئياً، محل الأقوى خاصة لو كان لعب لعبة تسمح بذلك، وهكذا.

الوعي البشري الجماعي الجديد

على الرغم من كل ذلك، فإنه يبدو على ساحة العالم أجمع أن ثمة إرهابات لبزوغ فجر جديد، برغم من أن الخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين بشكل واضح، ويمكن أن نسمى هذا القدام الواعد باسم: "الوعي البشري الجماعي الجديد"، في مقابل "النظام العالمي السلطوى الجديد"،

موجز القول

- إن لا مركزية الإعلام المتمادية،
 - واتساع مجالات المعرفة وقنوات التعرف التي أصبحت متاحة لكل الناس (تقريباً)
 - وامتداد شبكات التواصل الفردى والجماعى الأصغر فالأكبر،
- كل ذلك يرسل إشارات متواضعة، لكنها متمادية في النماء والوعد، تقول :
- إن بالإمكان أن يوقف مدّ التدهور، وأن تنحول الموجة لصالح تطور البشر لتحول دون الانقراض الذى ظهرت علامات ساعته جلية في الأفق.
- إن هذا التواصل الواعد الجديد قادر على أن يعيد للشخص العادى بعض معالم فطرته التي شوهتها وتشوهها عمليات غسيل المخ الجماعى المهددة للنوع البشرى برمته ، فنستعيد بذلك :

- حلاوة المعرفة،
 - وفرحة التساؤل،
 - ومسئولية الحزن الموقظ
 - ودهشة الحكمة الفطرية،
 - وفخر التاريخ الحيوى،
 - وتواصل البشر الحقيقى،
 - وإمكانيات الشخص العادى في المشاركة في النقد والإبداع،
- فيعود الإنسان قادراً على أن يسير أموره من حسن إلى أحسن برغم بطء الخطى ووعورة الطريق.

.....

تعقيب أخيراً كتبته اليوم 19 نوفمبر 2007:

حين قرأت آخر المقال هكذا:

امتلت غيظاً مئى و أملاً : فيكم، وفي ربنا.

أى والله، !!!!